شرح

تجريد التوحيد المفيد

تأليف

الإمام العلّامة أحمد بن علي المقريزي المصري الشافعي

(٧٦٦ - ٨٤٥ هـ)

لفضيلة الشَّيْخِ الدُّكْتُورِ:

سليمان بن سليم الله الرحيلي

غَفَرَ اللّٰهُ لَهُ وَلِوَالِدَيْهِ وَلِمَشَايِخِهِ وَلِلْمُسْلِمِينَ

الدَرْسِ (١٨)

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْصَّلَاةُ وَالْسَّلَامُ الأتمانِ الأكملانِ علىٰ المبعوثِ رحمةً للعالمين، وعلىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ، اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَعَلَىٰ آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَعَلَىٰ آلِ إِبْرَاهِيمَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ.

أما بعد؛

فمعاشر الفضلاء؛ درسنا بعد فجر يوم السبت في مسجد رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في علم عال شرفه، عظيم أثره، في علم دعا إليه النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منذ أن بُعث إلىٰ أن مات صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فما خلت بعثة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ منه قط، في علم التوحيد.

ونحن في سلسلة شروحنا لمتونٍ في العقيدة نشرح كتاب **(تجريد التوحيد المفيد)** للإمام تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المصري الشَّافِعِيّ، المتوفى سنة ٨٤٥ من هجرة النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فالمؤلف كان في بعلبك، ثم استقر في مصر مكانًا.

وكان حنفي المذهب، ثم تحول إلىٰ المذهب الشَّافِعِيّ، فهو عارف بالمذهب الحنفي، وعارف بالمذهب الشَّافِعِيّ، وهو من أهل القرن التاسع زمانًا.

فالتوحيد كان يُنادىٰ به في أمصار المُسْلِمِيْنَ عبر الأزمان، منذ عصر الصحابة الذين أخذوا التوحيد عن رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلىٰ يومنا هٰذَا، وإلىٰ أن يأتي أمر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فهذا الكتاب الذي بين أيدينا من الأهمية بمكان، وقد بينا أهميته في أول شرح الكتاب. هذا الكتاب مؤلفه مصري شافعي من أهل القرن التَّاسِع، وهكذا هي سلسلة التوحيد لا تنقطع. وقد تقدم شرح بعض ما أورده هذا الإمام الناصح تقي الدين المقريزي رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في هذا الكتاب، ونواصل قراءة كلامه النافع المتقن ونعلق عليه. فيتفضل الابن نور الدين وَفَّقَهُ اللهُ والسامعين يقرأ لنا من حيث وقفنا.

الحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلامُ علىٰ أشرف الأنبياء والمرسلين، نَبِيِّنَا مُحَمَّد وعَلَىٰ آلِهِ وَصَحْبِهِ أَجْمَعِيْنَ. أَمَّا بَعْدُ؛ فاللهم اغفر لنا ولشيخنا والسامعين.

قال المصنف رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

فإن قيل: المشرك إنما قصد تعظيم جناب الله – تعالىٰ –، وأنه لعظمته لا ينبغي الدخول عليه إلاّ بالوسائط والشفعاء، كحال الملوك، فالمشرك لم يقصد الاستهانة بجناب الربوبيّة، وإنما قصد تعظيمه، وقال: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} ، وإنما أعبد هذه الوسائط لتقربني إليه، وتدخل بي عليه، فهو الغاية، وهذه وسائل

(الشرح)

هنا يشير المصنف رَحِمَهُ اللهُ إلىٰ أن الواقعين في الشرك الأكبر ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام في أنفسهم شبهات جعلتهم يتكردسون في الشرك الأكبر مع وضوح قبحه وقيام الأدلة علىٰ كونه شركًا في الكتاب والسنة وإجماع السلف. وكما أن لهم شبهًا يوردونها علىٰ أهل التوحيد، ويشغبون بها علىٰ أهل التوحيد. وأهل العلم يقررون أنه يجب علىٰ المسلم أن يعلم التوحيد ويعمل به، وأن يعرف الشرك ويسلم منه، ويكفر بالطاغوت، وأن يكون مع الموحدين الصادقين، وأن ينأىٰ بنفسه عن المشركين ما استطاع. فإن استطاع أن لا يرىٰ نار المشركين الحسية والمعنوية فهذا خير له، فلا يقرب منهم مكانًا ولا يستمع منهم بيانًا، وإنما ينأىٰ بنفسه عنهم. ويحسن به أن يعرف كبار الشبه وردها.

ولذا كان من إحسان الإمام الناصح السلفي المتبع للسلف الصالح شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ أنه ألف كتاب **(الأصول الثلاثة)**، وألف كتاب **(التوحيد)**، وألف كتاب **(كشف الشبهات)**؛ ليحقق للمسلم هذا الذي قاله العُلَمَاء. وما جاء بشيء جديد من عنده، وإنما هو ما أجمع عليه الصَّحَابَة، وقرره الأئمة المتقدمون، وقرره كبار العُلَمَاء. جمعه الإمام ورتبه، وبوب له، وجمع أدلته ونضدها. فما أعظمه من ناصح رَحِمَهُ اللهُ.

فالشيخ هنا يشير إلىٰ شبهة من أكبر شبهات الواقعين في الشرك الأكبر ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام، وهي أنهم يقولون إن هؤلاء الذين تقولون إنهم مشركون لكونهم يعكفون علىٰ القبور ويطلبون الحاجات من المقبورين، وينادون الأموات: الغوث الغوث؛ هؤلاء الذين تقولون إنهم مشركون وإن فعلهم يساوي فعل المشركين الذين حكم الله عليهم بِالشِّرْكِ، وأبغضهم النبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والصحابة وقاتلوهم، إنما يفعلون ما تسمونه شركًا لأنهم يريدون تعظيم جناب الله عَزَّ وَجَلَّ. فإنه لعظمته عندهم ولنقص العبد لا ينبغي أن يسأل هذا العبد الناقص ربه مباشرة، بل يجعل إليه وسيلة من البشر أو غيرهم، يتقرب إليهم، ويسألهم لتقربه إلىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ، فكيف تجعلونه كالمشركين الأوائل الذين يستهينون بالله عَزَّ وَجَلَّ.

وإن شئت فاجعل الشبهة لكل المشركين ممن ينتسبون إلىٰ الإسلام ومن غيرهم، فتقرر الشبهة علىٰ أن المشركين جميعًا ما عبدوا تلك المخلوقات وإنما جعلوهم وسائل، وقالوا ما نعبدهم هم، وإنما نتقرب إليهم ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ. فنحن تعظيمًا لله نجعل بيننا وبينه وسائط. فإذا كان شأن الملوك من أهل الدنيا أنهم لعظمتهم وتعظيمهم لا يهجم عليهم العوام بطلباتهم بل يكون بينهم وبين العوام حجابٌ وأناس لهم مقام عند أولئك الملوك، فيتقرب إليهم العوام بالهدايا، ويتقربون إليهم ليرفعوا حاجاتهم إلىٰ أولئك الملوك. فكذلك ملك الملوك سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

والشيخ يرتب علىٰ هذا أسئلة، نستعرضها قبل أن نذكر ردًا إجماليًا عليها، ثم نقرأ كلام الشيخ في الرد عليها جميعًا.

قال رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

فلم كان هذا القدر موجبا لسخط الله تَعَالَىٰ وغضبه، ومخلدًا في النار وموجبًا لسفك دماء أصحابه واستباحة حريمهم وأموالهم؟

(الشرح)

أي لم تجعلونه بفعله هذا مع كونه مريدًا تعظيم الله؟ ومعظما لجناب الله عَزَّ وَجَلَّ؟ كيف تجعلونه مشركًا حلال الدم مخلدًا في النَّار؟ مع أنه ما قصد إلا تعظيم الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ وهذا سؤال باطل؛ أعني ما فيه، وسنرد عليه إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

وهل يجوز في العقل أن يشرع الله - تعالىٰ - لعباده التقرّب إليه بالشفعاء والوسائط، فيكون تحريم هذا إنما استفيد بالشرع فقط، أم ذلك قبيح في الشرع والعقل، يمنع أن تأتي به شريعة من الشرائع

(الشرح)

أي هل تحريم اتخاذ وسيلة شركية، وواسطة شركية بين المخلوق والخالق جائز عقلًا قبيح شرعًا فيكون بعض الأنبياء قد جاء بإباحة ذلك وحُرم في شرعنا؟ أم أنه قبيح عقلًا وشرعًا ولم يأت نبي من أنبياء الله عَزَّ وَجَلَّ بإباحته وبالإذن فيه؟ وسيأتي الجواب عن هذا أيضًا إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

وما السر في كونه لا يغفر من بين الذنوب، كما قال تعالىٰ: {إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ}؟

(الشرح)

هذا السؤال الْثَّالِث، وهو: ما القبح الخاص في ذنب الشرك حتىٰ كان الله عَزَّ وَجَلَّ لا يغفره لمن مات مصرًا عليه مع كون ربنا يغفر الذنوب جميعًا؟ بعبارة أخرىٰ: لماذا قد يغفر الله للزاني زناه

وللسارق سرقته لكنه لا يغفر للمشرك شركه؟ ما الذي ميز هذا عن هٰذَا؟ ما القبح الزائد في الشرك بالله حتىٰ خصه الله عَزَّ وَجَلَّ بهذا فَقَالَ: ﴿إِنَّ اللهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٤٨]؟ وكما ذكرت لكم نجيب عن هذه الأسئلة جوابًا إجماليًا واضحًا، ثم نقرأ كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وما أجمله من كلام يتعاقب عليه أهل السنة وَالْجَمَاعَة، ونشرحه إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ.

أما السؤال اَلْأَوَّلُ؛ فإنا نقول إنا لا نسلم أصلًا أن المشرك إنما يعظم الله عَزَّ وَجَلَّ، ولا يعبد المخلوق، وإنما يجعله وسيلة بينه وبين الله تعظيمًا لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. بل هذا هو عين صنيع المشركين الأوائل الذين حكم الله عَزَّ وَجَلَّ عليهم بالشرك والخلود في النَّار، وحاربهم رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وأبغضهم، وأبغضهم صحابة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقاتلوهم.

قال ربنا سُبْحَانَهُ: ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ [الزمر: ٣]، هذا الفرض علىٰ كل أحد أن يكون الدين لله وحده، وأن لا يُعبد إلا الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، فلا تحل العبادة جليلة كانت أو قليلة لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، لا لمَلَك مقرب، ولا لنبي مرسل، ولا لولي صالح؛ هذا حصرٌ، ﴿أَلَا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣].

الذين أشركوا بالله عَزَّ وَجَلَّ يقولون ما نعبدهم، وإنما نتقرب إليهم ليقربونا إلىٰ الله زلفىٰ. وأين تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ في جعل حقه الخالص لبعض مخلوقاته؟! أين هذا التعظيم! عندما يأتي المشرك الظالم فيجعل حق الله الخالص لشيء من مخلوقاته كيف يكون معظمًا له سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟ وأين تعظيم الله في اعتقاد المشرك المخذول أن من المخلوقات من يشارك الله في التدبير والتأثير والإعطاء اَلْمُطْلَق!؟ والمنع اَلْمُطْلَق؟! أين تعظيم الله في هٰذَا؟! عندما يعتقد المشرك المخذول أن هناك من يشارك الله في ربوبيته فإنه ما سأل المخلوق إلا وهو يعتقد أن للمخلوق أثرًا في التدبير والتأثير والإعطاء والمنع.

وأين تعظيم الله في إساءة الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ وإحسان الظن ببعض المخلوقين؟! وأين تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ في اعتقاد أن دعاء المخلوقِ المخلوقَ خيرٌ له من دعائه الخالق؟! كل هؤلاء الذين يتقربون إلىٰ أصحاب القبور وإذا أصابتهم نازلة ذهبوا عند صاحب القبر، والغالب أنه يُجعل

في المسجد، والله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ يقول: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا﴾ [الجن: ١٨]، فجعل هؤلاء المساجد لغير الله، وأدخلوا فيها المقبورين، ودعوا فيها غير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. كل من يذهب لأصحاب القبور ويقف علىٰ أعتابهم ويناديهم ويدعوهم إنما قام في قلبه أن سؤله لا يتحقق إلا إذا سأله، أما لو سأل الله وهو في جوف بيته فإنه لا يحصل له ما يريد. فيسيئون الظن بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ولا يعلقون قلوبهم بالله قط ويحسنون الظن بالمخلوقين الضعفاء الفقراء الأموات، ويعلقون قلوبهم بهم. أين تعظيم الله في كون الإنسان إذا أصابه أمر عظيم جليل لا يذكر الله؟! ولا يقوم الله في قلبه وإنما يذكر المخلوق ويركن إلىٰ ذلك المخلوق؟!

ثم إن المشرك يتقرب إلىٰ الأموات ويجعلهم سببًا والله عَزَّ وَجَلَّ لم يجعلهم سببًا، ولم يدل الناس علىٰ ذلك، فهذا كتاب الله ليس فيه إلا النهي عن ذلك. وهذه سنة رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ليس فيها إلا النَّهْي عن ذلك. وأولئك المقبورين في قبورهم لا يدرون ما حدث بعدهم، لا يدرون أصلًا ما حدث بعدهم. أشرف المخلوقين هو محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أعظم الخلق وأشرف الخلق وأقرب الخلق إلىٰ الله وخليل الله محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ والله لا يدري ما حدث بعده. ما نقول هذا نحن! بل إنه صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يوم القيامة عندما يُذاد أقوام عن حوضه الشريف صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيقول: «أمتي! أمتي!» يقال له: (إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك)، فكيف يُتقرب إليهم؟ ويُسألون؟ ويُطلب منهم؟ ويُعتقد أنهم يجيبون؟ وأنهم ينفعون؟ وأنهم يضرون؟

وأين تعظيم الله عَزَّ وَجَلَّ في فعل أمر قد نهىٰ الله عنه نهيًا شديدًا وحرمه تحريمًا أكيدًا؟ بل أين تعظيم الله في فعل ضد ما خلق الله الإنسان من أجله؟! فالله ما خلقنا إلا لنوحده، ونعبده وحده سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، كما قال ربنا: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦].

أين تعظيم الله في فعل العبد ضد ما خُلق من أجله؟ أين تعظيم الله في رد كلامه سُبْحَانَهُ الداعي إلىٰ دعائه وأنه لا يحتاج إلىٰ وسائط في الدعاء في قوله سُبْحَانَهُ: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]؟ والله إنا نعتقد هذا اعتقادًا جازمًا. ربنا قريب يجيب دعوة الداعي إذا دعاه، ما يحتاج إلىٰ وسائط. وهؤلاء الذين يدعون غير الله يقولون: لا لا، الله بعيد، نحتاج

إلىٰ واسطة تقربنا إليه، ولا يجيب دعوة الداعي إذا دعاه وإنما يجيب دعوة الداعي إذا دعا ذلك المخلوق الذي يُعظم.

وقد يكون عظيمًا كالنبي صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لكنه لا يُرفع فوق ما جعله الله عَزَّ وَجَلَّ له. ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ [البقرة: ١٨٦]. (فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي) أمرٌ، (وَلْيُؤْمِنُوا بِي) هٰذَا الإيمان، (لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ) هذا الرشاد وغيره ضلال وشرك.

أين تعظيم الله في كون هذا المشرك يرد كلام الله ولا يقف عند كلام الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! أين تعظيم الله في تعطيله عن قربه وسمعه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ؟! وادعاء أنه محتاج إلىٰ من يرفع إليه شكاوىٰ الناس وحاجات الناس كما يحتاج ملوك البشر لضعفهم إلىٰ من يرفع إليهم حاجات الشعب ويوصل إليهم طلبات الشعب!؟ تَعَالَىٰ الله عما يقول الظالمون علوًا كبيرًا.

والله إن الشرك ظلم هو أعظم الظلم، وأكبر الظلم، وفيه تنقص عظيم لله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. فكان هذا الفعل والصنيع شركًا أكبر؛ لأنه أكبر الظلم، فهو موجب لغضب الله وسخط الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، وهو مُحِلٌّ لنفسه وعرضه وماله وموجبًا خلوده في النار يوم القيامة.

خلاصة الأمر أنه قد جعل حق الله لغير الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولذلك كان هذا الصنيع مُحِلًا لنفسه وماله في الدنيا وموجبًا لخلوده في النار يوم القيامة.

وبهذا أيضًا يعرف جواب السؤال الْثَّالِث: ما الذي ميز الشِّرْك؟ ما القبح الشديد في الشرك حتىٰ كان الله لا يغفره لمن مات عليه؟ كما يقال أيضًا في جواب السؤال الثالث إن الذنوب قد توجد مع التوحيد وعبادة الله، فهي تنقص التوحيد لكنها لا تنافي التوحيد، ولا تدفع عبادة الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. أما الشرك الأكبر فإنه لا يوجد مع توحيد الله أبدًا، بل إذا وُجد الشرك الأكبر انتقض التوحيد. فهذا الفرق بين الشرك وبقية الذنوب.

وأما السؤال الثاني وهو: هل قبح الشرك بالتقرب إلىٰ المخلوقين لاعتقاد العبد أنهم وسائل إلىٰ الله عقلي شرعي أم أنه قبح شرعي؟ ما الذي يترتب علىٰ هذا السؤال؟ إذا قلنا إنه قبيح عقلًا وشرعًا فلا يتصور أن يأذن الله به قط، بل كل الأنبياء ما جاءوا بالإذن فيه. أما إذا قلنا إنه قبيح شرعًا ممكن

عقلًا فإنه يتصور أن بعض الأنبياء قد جاء به، ولكن في شريعة محمد صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشريعة التامة حُرِمَ. والجواب عن هذا السؤال: لا شك أن الشرك بالله قبيح شرعًا، وقبيح عقلًا، وقبيح طبعًا، وأنه تأباه الفطر والقلوب السليمة، وأن المقطوع به أنه ما من نبي بُعث إلا وحرم ذلك، ونهىٰ عن ذلك نهيًا شديدًا أكيدًا.

هذا الجواب الإجمالي الواضح البين عن هذه الأسئلة، ثم نقرأ كلام المصنف رَحِمَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ونعلق عليه.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

قلنا: الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(الشرح)

يا إخوة هذه مقدمة للجواب تضمنت تقسيمًا بديعًا للشِّرْكِ، وذلك أنه باستقراء الأدلة من الكتاب والسنة يتبين أن الشرك ينقسم باعتبارات، فقد ينقسم إلىٰ قسمين، فنقول:

القسم اَلْأَوَّلُ: شرك في المعرفة والإثبات؛ وهذا يتعلق بالربوبية والأسماء والصفات.

القسم الثَّانِي: شرك في القصد والطلب؛ وهذا يتعلق بالعبودية.

وقد نقول إنه ينقسم إلىٰ ثلاثة أقسام:

١) شرك في الربوبية.

٢) شرك في الأسماء والصفات.

٣) شرك في الألوهية.

وقد نقول إنه ينقسم إلىٰ قسمين: شرك التعطيل، وشرك التمثيل. وهذه الأقسام لا تتنافى، بل حيثما قسمت فالوجه صحيح. والمصنف رَحِمَهُ اللهُ ذكر التقسيم الثالث وهو مما يذكره أهل السنة والجماعة جميعًا، أن الشرك ينقسم إلىٰ قسمين: شرك التعطيل، وشرك التمثيل. والمصنف رَحِمَهُ اللهُ يبين ذلك بيانًا بديعًا جميلًا.

قال رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

قلنا: الشرك شركان:

شرك يتعلق بذات المعبود وأسمائه وصفاته وأفعاله.

(الشرح)

وهذا الشرك في المعرفة والإثبات، يتعلق بالربوبية وبالأسماء والصفات. وبعبارة أخرىٰ يتعلق بأفعال الله وأسمائه وصفاته، شرك يتعلق بأفعال الله عَزَّ وَجَلَّ وبأسمائه وصفاته.

قال رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

وشرك في عبادته ومعاملته

(الشرح)

وهذا الشرك في العبادة، وهو يتعلق بالألوهية، أي بإفراد الله عَزَّ وَجَلَّ بالعبادة، وهو كما يقول العلماء شرك القصد والطلب. الأول شرك الخبر والإثبات، والثاني شرك في القصد والطلب.

قال رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

وإن كان صاحبه يعتقد أنه سُبْحَانَهُ لا شريك له في ذاته ولا في صفاته.

(الشرح)

أي وإن كان المشرك بعبادة الله عَزَّ وَجَلَّ يثبت لله الربوبية ويثبت لله الأسماء والصفات فهو مشرك. وكما نبهت سابقًا فهذا الإثبات من المشرك بالله في الألوهية لا يكون تامًا، يعني الإثبات للربوبية وللأسماء والصفات لا يكون تامًا، بل يكون فيه خلل. وسيأتي أيضًا تنبيه علىٰ هذا بعد قليل.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

فأما الشرك الثاني فهو الذي فرغنا من الكلام فيه وأشرنا إليه الآن، وسنشبع الكلام فيه إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَىٰ.

(الشرح)

الشرك الثاني وهو الشرك في الألوهية، فهو الذي تقدم تقريره وبيان أصولٍ في ضده، وسيعود إليه المصنف إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ ويشبع الكلام فيه.

قال رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

وأما الشرك الأول فهو نوعان

(الشرح)

وأما الشرك الأول الذي هو الشرك في المعرفة والإثبات المتعلق بالربوبية والأسماء والصفات نوعان.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

أحدهما شرك التعطيل

(الشرح)

والتعطيل هو النفي والإنكار، وأقبحه نفي وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. ومنه نفي انفراد الله بالعبادة. ومنه نفي كمال الله بنفي صفاته وأسمائه أو بعض صفاته وبعض أسمائه.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وهو أقبح أنواع الشرك، كشرك فرعون في قوله: {وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ}؟

(الشرح)

عَطّلَ الله عن وجوده، **(وما رَبِّ العَالَمِينَ)** أي لا رب للعالمين، وإنما هو المخذول رَبِّ العَالَمِينَ، وربهم الأعلىٰ الذي لا رب أعلىٰ منه، فهذا تعطيل لله عَزَّ وَجَلَّ عن وجوده.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وقال: {يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا}. والشرك والتّعطيل متلازمان

(الشرح)

(والشرك والتعطيل متلازمان) أي الشرك في الألوهية والتعطيل متلازمان.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

فكل مشرك معطّل، وكل معطّل مشرك

(الشرح)

أي أن كل مشرك في الألوهية معطل وَلَا بُدَّ؛ لأمرين:

الأمر الْأَوَّلُ: أنه يعطل الله عن حقه الخالص، وهو إفراده بالعبادة.

الأمر الثَّانِي: أن كل مشركٍ بالله في ألوهيته لا بد من خلل عنده في الربوبية والأسماء والصفات، لا بد أن يقع عنده اعتقاد يخل بشيء من الربوبية، واعتقاد يتعلق بمخالفة الأسماء والصفات. وإن كان أصل الإثبات قائمًا عنده، أصل إثبات الربوبية قائم عنده، أصل إثبات الأسماء والصفات قائم عنده لكن لا بد من خلل. مثلًا: مشركي قريش؛ كان أصل إثبات الربوبية قائمًا عندهم كما تقدم بيانه، لكنهم يعتقدون أن لآلهتهم تأثيرًا وتدبيرًا، وهذا خلل في الربوبية. وكانوا يقولون لا نعرف رحمن إلا رحمن اليمامة، وهذا خلل في الأسماء والصفات. إذن انتبهوا لهذه القضية! إثبات المشركين في

الألوهية قديمًا وحديثًا لا يمكن أن يقوم معه الإثبات المطلق الخالص للربوبية وللأسماء والصفات، بل لا بد من خلل وإن كان أصل الإثبات قد يقوم منهم.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

لكن الشرك لا يستلزم أصل التعطيل

(الشرح)

لكن الشركة الألوهية لا يستلزم أصل التعطيل يعني التعطيل مُطْلَقًا، بل قد يثبت المشرك في الألوهية ربوبية الله، وهذه حجة عليه وقد يثبت أسماء الله وصفاته لكن كما قلنا مع خلل في ذلك. فشرك الألوهية لا يستلزم أن يكون المشرك في الألوهية معطلًا مُطْلَقًا للربوبية أو للأسماء والصفات، بل قد يثبت الربوبية والأسماء والصفات لكن مع خلل في ذلك.

قَالَ رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

بل قد يكون المشرك مقراً بالخالق سبحانه وتعالىٰ وصفاته ولكنه معطّله حق التّوحيد.

(الشرح)

يعني يكون مقرًا في الأصل مع خلل في ذلك، لكنه يعطل حق الله عَزَّ وَجَلَّ في إفراده بالعبادة وتوحيده في العبادة سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

قال رَحِمَهُ اللهُ:

(المتن)

وأصل الشرك وقاعدته التي يرجع إليها: هو التّعطيل، وهو ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه.

(الشرح)

التعطيل المتعلق -كَمَا قُلْنَا- بالربوبية والأسماء والصفات والألوهية؛ لأنه قد يكون بنفي وجود الله وأفعال الله، وقد يكون بنفي ألوهية الله، وقد يكون بنفي بعض أسمائه وصفاته، أو بنفي أسمائه وصفاته كما عند الغلاة التعطيل ثلاثة أقسام:

أحدها: تعطيل المصنوع عن صانعه؛ أي تعطيل المخلوق عن خالقه، فهذه المخلوقات ومنها نحن الذين نُخلق بهذا الخلق البديع والتماثل الكبير كلنا رؤوسنا فوق، ما يوجد منا من رأسه في أسفل ورجلاه فوق، فم وأعضاء داخلية يحار الأطباء في عملها. هؤلاء يزعمون أن هذه المخلوقات في الأرض والسماوات لا خالق لها. وهؤلاء في الحقيقة لا النقل آمنوا به ولا العقل استسلموا له، وإن كانوا يزعمون أنهم يستعملون العقل.

هؤلاء الملاحدة الذين ينفون وجود الله ولا يثبتون للمخلوقات خالقًا، وهم في هذا مباهتون للعقل، مخالفون للفطرة، ولذلك يضطربون في نفيهم. فمنهم من ينفي الخالق أصلًا، ومنهم من يقول الخالق هو الطبيعة، ومنهم من يقول الخالق هو العِلة الأولىٰ كما تقدم ذكر ذلك في الدروس السابقة. ثم هم يباهتون أنفسهم في الحقيقة، فإن الواحد منهم إذا نزل به كرب يجد في نفسه أنه يتوجه إلىٰ الله، وإن كان يكابر وينكر ذلك في الظاهر. بل قد يحدثك عن الله ثم تراه ينظر إلىٰ أعلىٰ وهو ينكر وجود الله، يقول الله غير موجود، وهو ينظر إلىٰ الأعلىٰ! لأن الفطر تقوم بهذا. فهم مباهتون للعقل مخالفون للنقل مخالفون للفطر.

ولا يمكن أن تقوم القاعدة للملحد، لا يمكن أن تقوم القاعدة للملحد وتطّرد، محال. ولكن هي في الحقيقة يا إخوة شهوات، يريدون أن يسقطوا الوازع عن المحرمات ليغوصوا في عفن الشهوات. حتىٰ علمت أن منهم من يجتمعون في بعض الفنادق في بعض الدول لتبادل الزوجات، يتواعدون في وقت معين في دولة معينة في فندق معين ثم زوجة هذا تذهب إلىٰ هٰذَا، وزوجة هذا تذهب إلىٰ هٰذَا. فالحقيقة أن الأمر كله إنما هو متعلق بعفن الشهوات. وإلا فلا شبهة يمكن أن تقوم علىٰ وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، ولا شك أن هذا أقبح الشِّرْك، أقبح التعطيل.

قال رَحِمَهُ اللهُ :

(المتن)

الثاني: تعطيل الصّانع عن كماله الثابت له.

(الشرح)

تعطيل الصانع، وأطلق (الصانع) علىٰ الله لأن لله صنعًا، ﴿صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٨٨]. وإن كان هذا لم يرد، لكن لا شك أنه الله صانع، وأن له صنعًا. وهؤلاء لا ينفون وجود الله، لكن ينكرون كماله بإنكار صفاته وأسمائه التي تدل علىٰ كماله المطلق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وقد يتناهىٰ هذا التعطيل حتىٰ يعود إلىٰ النوع اَلْأَوَّلُ؛ إذا غلا هذا المعطل حتىٰ نفىٰ كل الصفات وحتىٰ نفىٰ كل الأسماء فهذا لا يثبت الذات؛ لأن الذات لا تقوم بلا صفات، فهذا يعود قوله إلىٰ إنكار وجود الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ. وإذا أدخل الإنسان عقله المريض فنفىٰ بعض الصفات فإن هذا يفتح الباب للملاحدة ليدخلوا عقولهم المريضة فينفون وجود الله.

ولذلك يا إخوة نفي بعض صفات الله سُلَّمٌ إلىٰ الإلحاد؛ لأن نفي بعض صفات الله إنما قام بما يدعون أنه العقل، فأنت إذا نفيت عن الله شيئًا ثبت بالنقل بحجة العقل فقد فتحت الباب. فيأتي آخر فينفي أكثر من الصفات التي نفيتها، حتىٰ يأتي فينفي الصفات كلها، فيؤول إلىٰ العدم، وقد يأتي آخر وينفي وجود الله بالعقل. والحقيقة أنه لا عقل ينفي شيئًا من النقل، وإنما هي نتائج عقول بعض الناس المرضىٰ، أما العقل ذاته فلا شك أنه موافق للنقل، ولا يمكن أن ينفي شيئًا مما ثبت بالنقل.

لعلنا ننقف عند هذه النقطة؛ ولأن النقطة الثالثة قد تحتاج إلىٰ شيء من التفصيل ولا أحب أن أحبس الإخوة. فإِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ في يوم السبت القادم نكمل قراءة هذا الكلام البديع الذي تطابقت عليه كلمة أهل السنة وَالْجَمَاعَة، ونعلق عليه ونبين ما فيه إِنْ شَاءَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ من الخير والبركة وتقرير توحيد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه وصفاته أن يعيننا علىٰ ذكره وشكره وحسن عبادته، وأن يثبتنا علىٰ التوحيد، وأن يجعلنا معظمين للتوحيد دعاة إليه، وأن يكفي المسلمين شرور دعاة الشرك وشبهات أهل الشِّرْك، وأن يقر أعيننا بظهور التوحيد وظهور العلم به، وأن يجعلنا خدامًا لذلك. نسأل الله عَزَّ وَجَلَّ أن يستعملنا في تقرير التوحيد والدعوة إليه، وبيان الشرك والتحذير منه سائرين علىٰ سبيل رسول الله صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حتىٰ يقبض أرواحنا ونحن علىٰ ذلك. أسأل الله عَزَّ وَجَلَّ بأسمائه الحسنىٰ وصفاته العلىٰ أن يزيننا بالتوحيد وَالسُّنَّة، ويثبتنا علىٰ ذلك حتىٰ نلقاه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ.

واللهُ تَعَالَىٰ أَعْلَىٰ وَأَعْلَمُ

وَصَلَّى اللهُ عَلَى نَبِيِّنَا مُحَمَّد وَسَلَّمَ.